كردستانية كركوك واطرافها خلال العصور الوسطى*

أ. د. زرار صديق توفيق**

ب.

من الحقائق التاريخية الثابتة ان كركوك واطرافها التي عرفت خلال العصور الوسطى بالكرخيني أو باجرمي، كانت منذ القدم منطقة مسكونة من قبل القبائل الكردية وشكلت امتداداً لبلادهم الجبلية ولم يكن للكرخيني وكورة- ولاية باجرمي اي ارتباط جغرافي واداري مع العراق خلال العهود العربية الاسلامية الحاكمة، واشار الجغرافيون والرحالة المسلمون والمستشرقون والرحالة الاوروبيون بصراحة وحياد مراراً الى هذه الحقيقة وثبتوها، كما ان الساسة الكرد وعدداً من المؤرخين والباحثين والكتاب الكرد، كانوا ولا يزالو يحاولون بشتى السبل تثبيت هذه الحقيقة التاريخية للاصدقاء والخصوم وكل من جهته وحسب مالديه من المصادر والوثائق والنصوص التاريخية، فخدموا هذه القضية ووفروا دعماً علمياً تاريخياً للمطلب الكردي، وهذا المقال يصب في هذا المجال.

كركوك (باجرمى)
عند البلدانيين المسلمين

ظهر خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، الادب الجغرافي والرحلات في التاريخ الاسلامي، اي الاهتمام بالوصف الجغرافي وطوبوغرافية اقاليم الدولة الاسلامية والبلدان المجاورة وتدوين المعلومات والاخبار المتعلقة بالنواحي العمرانية والاقتصادية والاجتماعية للمدن والبلدات والقصبات والقرى التي زاروها أو مروا بها، وكذلك تعيين البعد بينها وتحديد تبعيتها الادارية، فظهر خلال العصور الوسطى عدداً من الجغرافيين والرحالة الذين خدموا بمذكراتهم ومشاهداتهم الميدانية مختلف أوجه الحضارة الاسلامية والقوا الضوء على جوانب مهمة لم تلتفت اليها المصادر التاريخية ومنهم:

- ابن خرداذبة (ت٢٨٠هـ/٨٩٣م) في كتابه "المسالك والممالك".
- ابن رستة (ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م)، "الاعلاق النفيسة".
- اليعقوبي (ت بعد ٢٩٢هـ/٩٠٥م)، "كتاب البلدان".
- ابن الفقيه (ت ٣٤٠هـ/٩٥٢م)، "مختصر كتاب البلدان".
- المسعودي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، "التنبيه والاشراف، مروج الذهب".
- الاصطخري (ت بعد ٣٤٠هـ/٩٥١م)، "مسالك الممالك".
- ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م)، "صورة الارض".
- المقدسي (ت٣٨٧هـ/٩٩٧م)، "احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم".
- ابن جبير (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، "رحلة ابن جبير".
- ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، "معجم البلدان".

---

* المقال- ماعدا رواية اسامة بن منقذ والفقرة الاخيرة- منشور بالاصل باللغة الكردية في مجلة (نەوشەفەق) (العدد (٣٤) كانون الاول ٢٠٠٦، ص٣-٧) التي تصدر في كركوك من قبل مؤسسة (شەفەق). ارتأت المجلة نشر نصه العربي لأهميته من الناحية التاريخية.

** قسم التاريخ/ كلية الآداب- جامعة دهوك.

– شيخ الربوة الانصاري (ت٧٢٧هـ/١٣٢٧م)، "نخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر".

– حمدالله المستوفي القزويني (ت ٧٥٠هـ/١٣٤٩م)، "نزهة القلوب".

– ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٣٧م)، "رحلة ابن بطوطة" وغيرهم.

كشف هؤلاء البلدانيون والرحالة عن الكثير من الاخبار النادرة والمعلومات المفيدة والفريدة حول جميع اقاليم ونواحي العالم الاسلامي ومن ضمنها المناطق الكردية ويعد آرائهم واحاديثهم على جانب كبير من الصواب وموضع ثقة على الاغلب لسببين:

– ان معظم الاوصاف والمعلومات التي دونوها شاهدوها بعيونهم ولم ينقلوها من مصادر اخرى.

– ان المصادر الجغرافية والبلدانية بصورة عامة تلقي الضوء على الجوانب الجغرافية والاقتصادية والمالية والعمرانية والادارية ونادراً ماتتناول الاخبار السياسية والعسكرية، لذلك قليلاً ما تقع تحت تاثير الوضع السياسي القائم، فضلاً عن ذلك فان عدداً منهم كانوا من سكنة مدن كردستان او المدن القريبة منها ورأوا بانفسهم كركوك والمدن الاخرى، فابن الفقيه من مدينة همدان وينحدر ابن حوقل من مدينة نصيبين وابن خرداذبة كان يعمل لسنوات صاحباً للبريد في مدن اقليم الجبال– كوهستان الذي كان يشمل على جزء من كردستان.

ويجدر الاشارة هنا الى ان هؤلاء الجغرافيين والرحالة لا يتفقون حول عدد من القضايا الادارية والجغرافية ويقدمون معلومات مختلفة بل متناقضة حولها، فانهم مثلاً لا يتفقون حول تعيين حدود بعض الاقاليم والولايات الاسلامية، غير ان جميعهم يتفقون حول ان حدود العراق من الشمال ووفق جميع الروايات لا يتخطى مدينة تكريت.

ويقول ابن الفقيه ان العراق تمتد من عانة حتى البصرة (مختصر كتاب البلدان، ص١٥٣)، في حين يقول ابن حوقل ان اقليم العراق يمتد طولاً من حدود تكريت حتى حدود عبادان، بل ان تكريت لم تكن مدينة معروفة وانما كانت قلعة عسكرية ومحطة تجارية غالبية سكانها من النصارى وتتبع ادارياً مدينة الموصل ومن المعروف ان مدينة الموصل كانت قاعدة اقليم الجزيرة (صورة الارض، ص٢٠٥، ٢٠٨). ان هاتين الروايتين لا تناقض احداهما الاخرى، بل تكتملان بعضهما البعض، فابن الفقيه عين حدود العراق من الغرب ومن ناحية نهر الفرات، في حين حدده ابن حوقل من الشرق ومن جهة نهر دجلة. ويمكن القول ان خطاً وهمياً من مدينة تكريت على دجلة الى مدينة عانة على الفرات يشكل الحد الفاصل بين اقليم العراق في الجنوب واقليم الجزيرة في الشمال، وهذا الخط –كما يذهب اليه المستشرق الانجليزي ليسترنج (١٨٥٤–١٩٣٣)– هو الاقرب في التقسيم الطبيعي منه الى التقسيم المصطنع وذلك من وجهة نظر الجغرافية الطبيعية وقسم السهل الفسيح والواسع لبلاد مابين النهرين الى قسمين او نصفين:

– القسم الشمالي: وهي مملكة آشور القديمة ومعظمها مراع تغطي سهلاً حجري الاصل.

– القسم الجنوبي وهي بلاد بابل القديمة وارضه رسوبية خصبة يكثر فيها النخيل وتسقيها انهار الري (بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٠–٤١).

وهذا يعني بطبيعة الحال أن كركوك وتوابعها ليس من الناحية الادارية وانما من الناحية الجغرافية الطبيعية ايضاً كانت تابعة لاقليم الجزيرة وتختلف عن اقليم العراق ولم تكن هناك اية علاقة تربط بينهما.

وفيما يتعلق بمفهوم كلمة العراق، هناك عدد من الآراء والروايات اوردها اللغويون والمؤرخون المسلمون قديماً، فجمعها ورتبها ياقوت الحموي، كما ان مرتضى الزبيدي شرح كلمة العراق في قاموسه (تاج العروس) واوجد لها معاني عدة ومن خلال جميع الآراء والشروحات المطروحة نصل الى نتيجة مفادها ان كلمة العراق تعني ساحل البحر، اي المنطقة المتاخمة للبحر او المجاري التي تصب في البحر، اي ان العراق هي المنطقة القريبة من البحر

والمقصود هنا هو خليج فارس الذي كان يعرف في العصر الاسلامي ببحر فارس وكان اهل الحجاز يطلقون على اية منطقة قريبة من البحر اسم العراق وعرفت الكوفة والبصرة بـ(العراقين).

وعرف نواحي كركوك منذ قديم الازمنة في المصادر السريانية بـ(بيث جرمي- باجرما) وهي كلمة سريانية- ايرانية مركبة تتألف من مقطعين: (بيث) كلمة سريانية تعني بلد- وطن- منطقة وصارت في اللغة العربية بيت، اما (جرمي- گەرم) يعني الحار بالكردية، وهكذا بيث جرمي تعني المناطق الحارة ولاتزال تعرف منطقة كركوك وما حولها بمنطقة (گەرميان) وثبت في المصادر العربية بـ(باجرمي) وذكر المسعودي بلاد الصرود وبلاد الجروم، بمعنى البلاد الباردة والبلاد الحارة. اما قلعة كركوك نفسها فكانت تعرف بالكرخيني وقدم ياقوت الحموي الذي مرّ بها تعريفاً مختصراً لها ويقول في موضع اخر باجرمق وهي ناحية قريبة من داقوق (معجم البلدان، ٣١٣/١، ٤٥٠/٤).

واكدت المصادر الجغرافية والرحالة المسلمون على ان مدن وبلدات: داقوق، خانيجار (كانى هنجير؟) كرخيني وناحية باجرمي- باجرمق كانت طيلة العصور الوسطى تابعة لاقليم الجزيرة (ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص٨٥؛ ابن رستة، الاعلاق النفيسة، ص١٠٣؛ شيخ الربوة الانصاري، نخبة الدهر، ص٢٥٥)، اما حمدالله المستوفي القزويني الذي عاش في عهد السيطرة المغولية، فعلى الرغم من انه يؤكد على ان حدود العراق ينحدر من تكريت نحو الجنوب، غير انه وضع بلدات الدجيل، داقوق، زنگاباد ضمن حدود العراق (نزهة القلوب، ص٤٢-٤٤) وفي الحقيقة ان المغول قاموا باجراء تعديلات على حدود واطار اقاليم وولايات الخلافة العباسية.

كركوك جزءاً من (جبال الاكراد- كردستان)

في اواخر العصر العباسي- اواسط القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي جرى تغييراً ادارياً في غاية الاهمية في اقليم الجبال الواسع، حيث استحدث اقليم او ولاية باسم (كردستان) كوحدة ادارية بعد ان تم تقسيم اقليم الجبال الى قسمين وصار القسم الغربي منه والذي يشمل مدن وبلدات كردية تعرف بكردستان، ولايعرف حتى الآن متى تم هذا الاستحداث ومن هي الجهة التي قامت بذلك، ومنذ ذلك الحين اخذ اسم كردستان يتردد مراراً في المصادر الفارسية والتركية كاسم رسمي لبلاد شهرزور وكردستان الشرقية. اما المصادر العربية في مصر وبلاد الشام خلال العهد المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م) كانت تستخدم جبال الاكراد بدل (كردستان) نظراً لأن الجبال تغطي غالبية مساحة البلاد وان كردستان تسمية غير عربية وهي غريبة وجديدة الى حدما عند المؤرخين، وبالاطلاع والتدقيق في المصادر المملوكية يتضح ان القصد من جبال الاكراد هو جميع مدن ومناطق كردستان وليس ولاية كردستان فقط.

ارتبطت الدولة المملوكية بعلاقة وطيدة وقوية مع سائر السلطات والامارات المحلية الكردية، كبيرها وصغيرها، وكانت الزيارات والمراسلات متواصلة بين كردستان وبلاد الشام ومصر، كما كان التحالف العسكري والموقف السياسي الموحد قائماً بين الطرفين، واورد مؤرخو الدولة المملوكية الكثير من الاخبار والمعلومات حول هذه العلاقة، كما ان كتبة ديوان الانشاء والمكاتبات يحررون الرسائل والخطابات باسم السلطان المملوكي أو باسم نائبه على بلاد الشام ويبعثونها للامراء والزعماء ورؤساء القبائل بكردستان ويستلمون البريد القادم منها.

عمل شهاب الدين يحيى بن فضل الله العمري (٧٠١-٧٤٩هـ/ ١٣٠١-١٣٤٨م) لفترة طويلة كاتباً وموظفاً في ديوان الانشاء والمكاتبات المملوكي ويحرر ويحضر الرسائل، كما كان كاتباً ومؤرخاً موسوعياً مكثراً، له نحو (١٧) كتاباً، لعل ابرزها واكثرها اهمية وشهرة كتابه الموسوعي (مسالك الابصار في ممالك الامصار) وهو كتاب كبير شامل جامع للعلوم والمعارف

والتراجم، ونشر في الامارات العربية المتحدة مؤخراً في (٢٧) مجلداً، واورد العمري في المجلد او السفر الثالث معلومات واخبار نادرة وفريدة حول كردستان خلال قرني السابع والثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين وعرف عدداً من المدن والبلدات والقلاع والقرى والقبائل والطوائف الكردية، والأهم من ذلك حدد حدود جبال الاكراد اي كردستان.

وما يهمنا هنا فيما يخص كركوك هو ان ابن فضل الله العمري اعتبر منذ اكثر من ستة قرون وبصورة مباشرة وصريحة كركوك وداقوق –الكرخيني وداقوق الساقية– جزءاً من جبال الاكراد، بمعنى ان كركوك وداقوق كانتا تعدان جزءاً من كردستان منذ القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، واعتقد ان رواية العمري هي اقدم دليل يثبت كردستانية كركوك وداقوق حيث يقول في معرض حديثه عن مواضع وقبائل جبال الاكراد ما يلي ((ثم يليهم بلاد الكرخيني وداقوق الساقية وعدتهم– عددهم تزيد على سبعمائة وكان اميرهم شجاع الدين ابابكر زاداً عن دينه محارباً عن قومه)) (مسالك الابصار، ٢٦٢/٣).

ونقل القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) الذي كان بدوره كاتباً في ديوان الانشاء والمكاتبات ملخص حديث العمري بتصرف قائلاً: ((بلاد الكرخين وداقوق الناقة– طائفة منهم عدتهم تزيد عن سبعمائة ولهم امير يخصهم)) (صبح الأعشى، ٣٧٥/٤)، ويلاحظ ان الكرخيني صحف الى الكرخين وداقوق الساقية الى داقوق الناقة والظاهر ان التصحيف ناجم عن خطأ نساخ الكتاب.

وفي حدود سنة ٥٢٦هـ/١١٣٢م جهز عمادالدين زنكي أتابك الموصل قوة عسكرية وأرسلها نحو قلعتي ماسر (؟) والكرخيني– كركوك لانتزاعهما من يد التركمان وكسر شوكة زعيمهم قفجاق بن أرسلان تاش الذي حشد جموع غفيرة من التركمان واستولى بالقوة على أصقاع واسعة من شهرزور وكركوك وگرميان بقلاعها وحصونها وقراها وحقولها ومراعيها وذلك بدعم وتأييد من السلاطين السلاجقة، ويقول ابن الأثير (٦٣٠هـ/١٣٣٢م) عن قفجاق: ((وكان حكمه تافذاً على قاصي التركمان ودانيهم، وكلمته لاتخالف، يرون طاعته فرضاً، فتحامى الملوك قصده، ولم يتعرضوا لولايته لأنها منيعة كثيرة المضايق، فعظم شأنه وازداد جمعه، وأتاه التركمان من كل فج عميق)) (الكامل، ٧٥٥/٨).

وكان المؤرخ والكاتب العربي الأمير أسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ/١١٨٨م) ضمن القوات التي هاجمت وحاصرت القلعتين، وسجل جانباً مما شاهده بنفسه في مذكراته، فنقل لنا صورة حية عن المظالم والأعمال الاجرامية التي ارتكبها القائد العسكري صلاح الدين محمد بن ياغيسيان بحق الرعايا الآمنين من اليهود والنصارى والكرد من سكنة القلعتين، ويروي رواية شاهد عيان كيف أن (عجوز كردية) بكت وصاحت و((كشفت رأسها كالقطنة المندوفة)) بعد أن ابلغت بمقتل ابنيه الاثنين بيد قوات زنكي وان أحدهم فارق الحياة جراء سقوطه من قمة أحد أبراج ماسر بعد أن نقب الجنود أساسات الأبراج، أما الآخر فوقع في الأسر، فأمر صلاح الدين محمد بن ياغيسيان بقطع جسده من الوسط الى النصفين (كتاب الاعتبار، ص٢٥٤–٢٥٥).

واكد عدد من الرحالة والمستشرقين الاوروبيين على الحقيقية التي ذكرها العمري، منهم الرحالة الايطالي المعروف بترو ديلافالا (١٥٨٦–١٦٥٢) الذي زار الشرق في بداية القرن السابع عشر الميلادي، حيث يروي في رسالة الى احد اصدقائه والمؤرخة في يوم (١٧) اذار سنة ١٦١٧ انه مر بكردستان وان اجتيازها يستغرق من الغرب الى الشرق ١٠–١٢ يوماً، اما من الشمال الى الجنوب فهي طويلة جداً وتبدأ من ارض بغداد وتمتد الى مابعد الموصل وبلاد ميديا وارمينيا (رحلة ديلافالا الى العراق، ص١٠٢–١٠٣).

وفي سنوات ١٥٧٣–١٥٧٥ قام الطبيب النباتي الهولندي ليونهارت راوولف بزيارة الشرق لجمع النباتات الطبية ووصل بلدة طاووق– طاووغ– داقوق في يوم ١٥٧٤/١٢/٢٤ ويقول في مشاهداته الميدانية: ((وعلى مسافة قصيرة من طاووق شاهدنا

قلعة محصنة فيها احدى الحاميات التركية وهذه تقع في بلاد الاكراد التي تبدأ من هنا وتسير بامتداد نهر دجلة مابين وادي النهرين حتى تصل ارمينيا)) (رحلة المشرق، ص١٩٦)، وبعد يومين وصل مدينة كركوك ويصرح بانه اضطر الى ايجاد من يتقن الكردية ((اضطررنا الى من يعرفون اللغة الكردية ان يكون بمثابة مترجمين لنا اثناء مرورنا ببلاد الاكراد)) (رحلة المشرق، ص١٩٧)، وفي العهد العثماني اصبحت كركوك لمدة طويلة قاعدة ولاية شهرزور.

وامتد الوجود الكردي الى جنوب كركوك بمئات الاميال، فسكان بلدة خورماتو مثلاً- وهو الاسم الصحيح وليس طوزخورماتو- وهي من توابع كركوك كانوا من الكرد منذ العصور الوسطى وجاء اول ذكر لها مقروناً باسم الكرد، حين تصدى الكرد المقيمون بها لعمر شيخ ابن تيمور لنك وأردوه قتيلاً عندما داهمهم وذلك في شهر جمادي الاولى سنة ٧٩٦هـ/ اذار ١٣٩٤م، وأكد المؤرخ الفارسي معين الدين نطنزي (ت بعد ٨١٧هـ/١٤١٤م) على ان قلعة خورماتو هي من نواحي كردستان (منتخب التواريخ معيني، ص٣٦٠).

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الفقيه الهمداني، مختصر كتاب البلدان (بيروت: ١٩٨٨).
- ابن حوقل، صورة الارض (بيروت: ١٩٧٩).
- ابن خرداذبة، المسالك والممالك (بيروت: ١٩٨٨).
- ابن رستة، الاعلاق النفيسة (بيروت: ١٩٨٨).
- ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار في ممالك الامصار (ابوظبي: ٢٠١٠).
- القلقشندي، صبح الاعشا في صناعة الانشا (بيروت: ١٩٨٧).
- بيترو ديلافالا، رحلة ديلافالا الى العراق، ترجمها عن الايطالية وعلق عليها الاب د. بطرس حداد (بغداد: ٢٠٠١).
- حمدالله المستوفي القزويني، نزهة القلوب (تهران: ١٣٣٦هـ.ش).
- شيخ الربوة الانصاري، نخبة الدهر من عجائب البر والبحر (بيروت:١٩٨٨).
- لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة تبشير مزسيس كوركيس عواد (بغداد: ١٩٥٤).
- ليونهارت راوولف، رحلة الرحالة الهولندي ليونهارت راوولف (رحلة المشرق)، ترجمة سليم طه التكريتي (بغداد: ١٩٨٧).
- معين الدين نطنزي، منتخب التواريخ معيني (تهران: ١٣٣٦خورشيدي).
- ياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت: ١٩٩٥).